أمانة شهيد

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتاب: أمانة شهيد

تأليف: أحمد بسام جودة

تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح

الناشر: دار الزيات للنشر والتوزيع

القطع: 14*20

سنة النشر: 2024

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 19690 / 2024

الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 542 - 8

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

9 789778 445428

أمانة شهيد

تأليف

أحمد بسام جودة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

تروي هذه القصـــة حكاية شـــاب غزيّ مقتحم للحدود في عملية طوفان الأقصى وهو عنصر لدى عناصر كتائب القسام.

وهي تجسيد لحياة الغزيين داخل القطاع بشكل عام.

وتُسلِّط الضوء على حياة المجاهدين قبل وخلال الحروب، ومزيجهم بين حب الحياة وعشق القلوب، وبين فداء الوطن بالروح إذا لزم الأمر، وترك الدنيا لأصحابها.

كان (يوسف) شابًّا في منتصف السابعة والعشرين من العمر، طويل القامة، حسن الوجه، ليّن اللسان، محبوبًا بين أهله وأصدقائه وجيرانه، محافظًا على فروضه ومبادئه.

كان يعيش يوسف وأسرته في بيت متواضع لعائلة غزيّة متواضعة كمثلها من أبناء غزة المحاصرين منذ سبعة عشر عامًا.

وكانت أسرة يوسف مكوَّنة من والده، ووالدته، وأخته أمل صاحبة العشرين ربيعًا، وجدته التسعينية المتمسكة بمفتاح بيتها في يافا، وحقها في العودة إليه.

كان يوسف بكرًا صالحًا لعائلته التي كانت معتمدة عليه اعتمادًا كليًّا؛ حيث كان يوسف يعمل في مطعم في حي الرمال، وكان يقضي معظم وقته بين العمل وتلبيه احتياجات البيت، ولا يُتاح له الخروج ولا التسكُّع مع أصدقائه كالبقية من الشباب في عمره.

كان رجلًا في سن الشباب والمرح،

لكن في وطني يُولَد الطفل ليكون رجلًا؛ حيث ليس هناك وقت إلا للجهاد بجميع أنواعه.

(ما قبل الطوفان)

خرج يوسف من بيته يوم الجمعة -وهو يوم إجازته من المطعم- ليتمشَّى على كورنيش شاطئ بحر غزة، وإذا بهاتف يوسف يرن.

يوسف: ألو يا هبة.

هبة: طمنني أنت بخير؟

يوسف: والله مشتاق لك ي بنتي.

هبة: آه باين باين. يا يوسف هو أنا مش خطيبتك ولازم تسأل عليا؟ يعني كيف لو مش ماخدين بعض عن حب؟

وكان ليوسف وهبة قصة حب بريئة، انتهت بخطبتهما قبل عام من الحرب وأحداث القصة.

هبة: ما بيجي ببالك إني بقلق عليك وبشتاق لك يا يوسف؟ أنا هشكيك لحماتي أول ما أشوفها وهي تجبلي حقي منك بقا.

يوسف: طيب يا ستي، أنا هراضيكي، إحنا مش حمل زعل الحاجة، ما هو إحنا ماشيين ببركتها.

هبة (بضحكة خبيثة): هتراضيني كيف يا حبيبي؟

يوسف: نص ساعة وهكون عندكم، البسي وجهزي حالك نطلع نتمشى.

هبة: أخيرًا! طب يا سيدي، المهم أنت ما تتأخرش عليا، باي.

دخل يوسف بيت هبة وكان بيت أسرة عادية في مخيم الشاطئ.

ما كان في بغزة قصور وﷺلل زي باقي دول العالم، بس داخل كل بيت بالمخيمات قصص حلوة، ولمة عيلة، ودفا، وحنان.

كل بيت من بيوت غزة كان فيه حلم بيترسم، وكان لكل حلم شخص ساعتها بيسعى لتحقيق حلمه، بس الحرب ضيعت كل أحلامهم.

يوسف (بعد السلام والمسامرة العادية والسؤال عن الحال بينه وبين عمه والد هبة): أستاذنك يا عمي آخد هبة نتمشَّى شويّ على الكورنيش.

والد هبة: تعرف يا يوسف أنا وافقت عليك ليه مع أن هبة كانت لسه صغيرة؟

يوسف: ليه يا عمي؟

والد هبة: لأنه صعب ألاقي شاب زيّك بزمننا هاد.

يوسف: هه مش أوي يا عمي، بلاش مجاملات عاد، أنت تدبست واللي كان كان.

والد هبة: لا بجد، يعني شاب زيك عايش على دراعه ورضا والديه من صغره، هاد عملة نادرة اليومين ها دول، بعدين أنت ناسي أنه إحنا جيران وأنا اللي مربيك يا ولد!

صوت خافت قاطع والد هبة: أنا جاهزة يا يوسف.

التقطت هبة يد يوسف كأنها امتلكت العالم كله، وخرجا مبتسمَين من المنزل يتسامران.

يوسف: مالك يا بنتي؟ ماسكة فيّا هيك كأنه بدي أستشهد وهاي آخر مرة تشوفيني فيها.

هبة: بعيد الشر يا يوسف، بتحب تنكد عليا أنت!

يوسف: ليش؟ وين النكد بالموضوع؟ أنا حكيت إشي أصلًا؟ هو أنا أطول أستشهد!

هبة: طب وأنا ما فكرت فيا؟ ما إجا على بالك كيف راح يكون حالي بعدك؟

يوسف: طب وفلسطين مين يفكر فيها ويحررها من اليهود؟ بلاش الأرض يا ستي، طب علي ومؤمن ولاد عمي، مين يطلعهم من سجون اليهود؟

ههه، علي ابن عمي محكوم عليه بـِ ٥٣٠ سنة مين يفكر فيه يا هبة؟ مين؟

لو كل واحد فينا خاف على حبيبته وأهله، الأرض راح تضيع وقضيتنا راح تموت.

بعدين أنا خطبتك ليش يا هبة؟

هبة: ليش؟

يوسف: عشان تصيري من أهلي، وإذا ما جمعتنا الدنيا تجمعنا الجنة يا حبيبتي.

هبة: أيوه، اضحك عليا يا يوسف.

يوسف: المهم سيبك من الكلام هاد كله، خدي هاي السلسلة وخليها برقبتك وما تشيليها بالمرة، هاي غالية على قلبي وراح يجي يوم وتكون غالية على قلبك أنت كمان.

هبة: حتى هديتك إلي سلسلة لخريطة فلسطين. البنات كلهم بيغاروا من البنات، إلا أنا بغار من فلسطين عليك. **يوسف:** تعالي ناكل حمص الشام، يا شيخة تعالي.

يوسف وصّل هبة لباب البيت وودعها، وآخر كلمات كانت من يوسف لهبة: ديري بالك على السلسلة يا هبة.

هبة ما اهتمت كتير، وقالت بنفسها أنه هدية وخلص.

ذهب يوسف إلى بيته كالمعتاد، وسلم على أهله، وقبَّل يد أمه، ودخل لفراشه لكي ينام وما يتأخَّر على عمله في يومه التالي كالمعتاد، ولكن..

رنَّ هاتف يوسف على غير المعتاد في تلك الساعة المتأخِّرة من الليل.

يوسف: ألو!

المتصل: ألو يا يوسف، هات البشارة.

يوسف: بربك ما بتمزح يا أبا حمزة.

أبو حمزة: الساعة هالقيت **١١:٤٥** معك ربع ساعة تكون لابس ومتوضي وحامل سلاحك، راح أرن لك على الساعة **١٢** بالظبط، وأحكيلك مكان التجمع.

آه إوعا حدا يحس عليك وأنت طالع ولا حتى أهلك، إوعا يا يوسف.

يوسف (بضحكة من القلب): يا أبا حمزة حتى أنا ما راح أحس على حالي، أخيرًا يا أبا حمزة، أخيرًا!

أبو حمزة: راح دقيقة، ضايل معك **١٤** دقيقة يا يوسف.

أغلق يوسف الهاتف وبسرعة الرمح لبس بدلته ولثمته، وتعطَّر، وتوضأ.

رن هاتف يوسف في تمام الساعة الثانية عشرة بالضبط.

أبو حمزة: يوسف، التجمع بعد ٥ دقائق بكرم أبي عبد الله، بآخر الكرم إن شاء الله.

فعلًا، بعد ٥ دقائق كان يوسف وثمانية مجاهدين من نخبة كتائب القسام يجلسون تحت زيتونة في الكرم، وإذا بصوت هادئ من بين الأشجار يلقي التحية.

أبو حمزة: السلام عليكم يا وحوش.

يوسف والبقية: وعليكم السلام ورحمة الله.

أبو حمزة: أولًا أنتم تسعة أشخاص وأنا عاشركم، بدي تعرفوا أنه تم اختيارنا من قبل القيادة بشكل دقيق وكُلِّفنا بمهمة صعبة جدًّا. قبل أن أشرح تفاصيلها بدي منكم اللي حاسس نفسه غير مؤهل وغير جاهز للقاء الله يتقدم خطوة إلى الأمام.

ابتسم يوسف وأصدقاؤه.

أبو حمزة: طيب يا إخوة، سمّعوني الصلاة على النبي واجلسوا.

جلس يوسف وأصدقاؤه وقائدهم أبو حمزة بحلقه دائرية، كل منهم كتفه على كتف أخيه مستبشرين، ينتظرون تفاصيل العملية التي طال انتظارها، ليشفوا صدورهم وصدور ذويهم وأهلهم.

أخرج أبو حمزة من جعبته كيسًا بلاستيكيًّا فيه شيء، **وقال:** مهمتكم يا أبطالي هي اقتحام مستوطنة عسقلان.

بصوت واحد ومن القلب ومن دون شعور، يوسف وأصدقاؤه: الله أكبر ولله الحمد.

فتح أبو حمزة الكيس وقال: أخيّركم الآن بين العصبة الحمراء والعصبة الخضراء، لديَّ خمس عُصَب حمراء وأخرى خضراء. مع العلم، أنا اخترت العصبة الحمراء. عليكم اختيار لون العصبة أولًا وبعدها تعرفون تفاصيل العملية.

قال يوسف: أنا أحب الربيع، لذلك أختار اللون الأخضر دائمًا.

بعد أن اختار كل من المجاهدين لون عصبته دون أن يعرفوا سببها،

قال أبو حمزة: الآن ندخل لتفاصيل العملية.

بعد صلاه الفجر في جماعة إن شاء الله، ستفجّر السياج الفاصل بعبوة ناسفة، ونركب الجيب، وندخل أراضينا مكبّرين مهلّلين، ونسلك طريق عسقلان دون أن نحيد عنها شبرًا واحدًا، ونحطم رؤوس اليهود مقبلين غير مدبرين إن شاء الله.

يوسف: إن شاء الله، ولكن ليش اختلاف الألوان يا أبا حمزة؟ أكيد في سبب.

أبو حمزة: هههههه راحت عليك يا يوسف، أحيانًا اختيارك للربيع من الخارج يتعبك.

بعد أن اخترتم يا أصحاب اللون الأخضر، وأنتم يا أصحاب اللون الأحمر، وأنا منكم الوحيد الذي اخترت بمعرفة.

عدل أبو حمزة جلسته، وقال: سيربط كل مجاهد منكم العصبة التي اختارها على كتفه اليمنى،

فأصحاب العصبة الحمراء -وأنا منهم- ستكون مهمتنا فدائية، أي ذهاب دون عودة، بمعنى أننا سنقاتل حتى الشهادة،

أما أنتم يا أصحاب الربيع -يوسف ورفاقه- فستعودون ومعكم من الأسرى ما يكفي لتصنعوا ربيعًا لإخواننا في سجون الاحتلال إن شاء الله.

وما إن سكت حتى دبَّت الحسرة في قلوب يوسف وفريقه، وقال: والله ما خسرت شيئًا في حياتي مثلما خسرت العصبة الحمراء، يا ليتني كنت معكم فأفوز فوزًا عظيمًا.

ابتسم **أبو حمزة وقال بعد أن قبّل رأس يوسف:** أنا راح أستشهد وعارف إنك راح تأسر من ها الكلاب ما يكفي لتحرير أسرانا، وأعطاه جهازًا لاسلكيًّا وقال له: هاد الجهاز راح يوصلك بالقيادة، وراح تكون يا يوسف مسؤول عن فريقك الأخضر.

راح أكون **أنا، وعلي، وعبيدة، وأحمد، وطه.**

وراح تكون **أنت يا يوسف، وعبد الله، وسالم، وإبراهيم، ومحمد** مهمتكم حماية الأسرى، وإدخالهم للقطاع، وإدخالهم في النفق حتى يتم تبادلهم أو نهاية الحرب.

يوسف: بعد أن فهمنا العملية بكافة تفاصيلها يا أبا حمزة، نريد أن نقيم الليل هنا في جماعة ليوفقنا الله لما نحن مقبلون عليه.

أبو حمزة: ما شاء الله يا يوسف، اختيارك كقائد لمجموعتك من قِبل القيادة كان موفقًا، نِعم القول قولك يا أخي! لنَقُم الليل.

أقاموا ليلهم، وأوتروا وترهم، وأكلوا ما تيسر من ثمرهم، فالفريق الأحمر كان متأكدًا من أن هذا آخر ليل يقيمونه في هذه الدنيا الفانية، أما الفريق الأخضر كان يدعو الله أن يوفقهم، ليخدموا قضيتهم ويُحرِّروا أسراهم.

كان يوسف يبتسم ويقول في نفسه: معقول أحضن علي ابن عمي قبل ما أموت! معقول أقدر أطلعه من سجن اليهود وأكسر قيد حكمه ب٥٣٠ سنة! معقول!

أذن فجرهم، فصلوه، ودعوا دعاءهم وأهل الدنيا نيام، وركبوا جيب التيوتا الذي ذاع صيته بعد الاقتحام وارتفع سعره، كيف لا وقد أصبح رمزًا لكسر القيد وفعل المستحيل وهو من ركب على متنه رجال كشفوا كذبة الجيش الذي لا يُقهر، وقهروه ببنادقهم محليه الصنع، ولكن بعزيمة رجال قوية وإيمان يكسر كل القيود والحصار.

كان السائق **علي،** وبجانبه **أبو حمزة** قائد السرية، و**عبيدة،** و**أحمد،** و**طه** يجلسون على الكرسي الخلفي في الجيب،

أما **يوسف،** و**عبد الله،** و**سالم،** و**محمد،** و**إبراهيم،** -وهم الفريق الأخضر- فكانوا يجلسون في كابينة الجيب في الخلف لينالوا نصيبهم من الرؤوس في طريق الذهاب قبل أن يصلوا لمبتغاهم ويعودوا بأسراهم.

أبو حمزة: تقاسموا الرؤوس، فليحب أحدكم لأخيه ما يحب لنفسه، سامع يا يوسف؟!

أوصيكم بوصية رسول الله: لا تقتلوا شيخًا ولا امرأة ولا طفلًا، ولا تقطعوا شجرة. يلا يا علي، سوق، توكل على الله.

تحرَّك الجمع وفجّروا السياج، وما إن دخل الرجال الحدود حتى بدأ التهليل والتكبير، وسلكوا طريقهم المتفق عليه، وتفاجأ الجميع من المشهد؛ حيث توقعوا أن يكونوا وحدهم المقتحمين بجيبهم، وإذا بكل جيبات القطاع خلفهم وجانبهم، وجميعهم يكبرون بأعلى صوتهم، وكلهم متفاجئون من المشهد المهيب الذي أمامهم.

يا الله! كل من يحمل سلاحًا ويلبس بدلته العسكرية دخل الغلاف.

يوسف: هي هادي السرية يا أبل حمزة، هه الله أكبر!

لكن الشيء المشترك الذي أفرح يوسف أكثر هو العصب الخضراء والحمراء التي وُجِدَت على كتف كل مقتحم.

أخرج أبو حمزة رأسه من النافذة الأمامية،

وقال: إحنا ما راح نوقف عند إشي فرعي يا شباب، يعني اللي بتشوفه طخه، إحنا رايحين عسقلان، وهناك شغلنا إن شاء الله.

فعلًا قتل يوسف ورفاقه في طريقهم لعسقلان أكثر من ثلاثين جنديًّا ومجندة دون أن تقف عجلات جيبهم كما نص الخبر عنهم.

وصلت الكتيبة كاملة عسقلان، وتجوّلت بشوارع المدينة، وتوقف الجيب أخيرًا،

نزل الجميع من الجيب ويملؤهم الحماس، ليشفوا صدور قوم مؤمنين.

أبو حمزة: يوسف، توكل على الله، خذ عناصرك ونفِّذ مهمتك، الله معك.

نعم، لقد حان وقت الوداع بينهم، وداع دنيا فانية لما كانوا يسعون إليه، ولكن هم بشر بالنهاية،

تصافح الأحباب بدموعهم وكانت آخر كلمات.

يوسف: إن شاء الله يا إخوتي لنا لقاء عند حوض النبي عليه الصلاة والسلام.

أخذ أبو حمزة ورفاقه عتادهم، ودخلوا يتسلَّلون بين المباني اليهودية، وكان هذا آخر لقاء بين يوسف وأبي حمزة ورفاقه.

وكما اعترف العدو الصهيوني بضحاياه بمدينه عسقلان، فقد قتل أبو حمزة ورفاقه مائة وعشرين من اليهود المغتصبين قبل أن يرتقوا شهداء بإذن ربهم.

في تمام الساعة الثامنة صباحًا وقد كان يوسف ورفاقه قد قتلوا من الصهاينة في عسقلان أكثر من عشرين قتيلًا، قد حان وقت العودة بعد أن أسروا ثمانية جنود وست مجندات. نعم، لقد كان حلمًا وأصبح حقيقة، أربعة عشر جنديًّا ومُجنَّدة مكبلون داخل الجيب.

لكن كما يُعرَف في المعارك، طريق العودة أصعب بكثير من طريق الذهاب.

بدّل يوسف ورفاقه الجيب بجيب إسرائيلي بسبب نفاد الوقود لديهم، وأداروا عجلاتهم نحو طريق العودة لغزة، ولكن حصل ما لم يكن بالحسبان،

جيبان من قوات الاحتلال المدججين بالسلاح يغلقون الشارع عليهم.

يوسف: وقّف يا إبراهيم، ادخل يمين، ادخل تحت العمارة، اخفي الجيب.

يوسف للجميع: يا شباب إحنا تحاصرنا هنا بس مش لازم نموت، مهمتنا نرجع عشان إخوتنا بالسجون عايشين على أملهم فينا.

عبد الله: شو الحل يا يوسف؟

يوسف: راح يظل عبد الله وإبراهيم هنا مع الجنود، وراح نطلع أنا وسالم ومحمد نفتح الطريق عشان نطلع فيهم بأمان.

الجميع بصوت واحد: توكل على الله يا يوسف.

خرج يوسف وسالم ومحمد، واشتبكوا مع القوة واجهزوا عليهم خلال سبع دقائق بتوفيق الله، وتواصل يوسف مع إبراهيم على جهاز اللاسلكي.

يوسف: إبراهيم سامعني؟

إبراهيم: سامعك، أرسل.

يوسف: اطلع؛ المكان نظيف بحمد الله، تم الإجهاز على القوة.

ركبوا السيارة وتحركوا بسرعة الرمح، قطعوا نصف طريق العودة، وإذا بمجاهد على جانب الطريق على كتفه شارة حمراء.

يوسف: معقول شهيد يا إخوان؟

عبد الله: نيالو، يا ريتني مكانه يا يوسف.

يوسف: إبراهيم، وقف السيارة.

إبراهيم: الوقت يا يوسف!

يوسف: إبراهيم وقف السيارة، نفذ الأمر.

نزل يوسف وفحص نبض المجاهد، ووضعه على كتفه، وكان يرتكز على رصيف الطريق، ومسح بيده جبينه.

يوسف: عايش يا إخوان، والله عايش، تعالَ يا سالم.

نطق المصاب: أستحلفك بالله، سيبني أستشهد، أنا ما صدقت الحظ ضحك لي أول مرة بحياتي وطلعت عصبتي حمراء؛ ما تحرمني من الشهادة ولقاء الأحبة يا أخي.

يوسف: اسكت راح تعيش لسه، الأرض بدها رجال، خليك معي ما تغمض عيونك.

ولكن كانت إصابته بست رصاصات، وهي بالغة الخطورة، ولم يردّ الله طلبه الشهادة بالحرمان، بل اصطفاه في منزلة الشهداء.

المصاب (مبتسمًا): أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. وأغمض عينيه على كتف يوسف، وارتقى شهيدًا في جوار ربه.

حزن يوسف، ومسح على وجه الشهيد وقبّل رأسه، وعاد أدراجه نحو السيارة وفتح الباب الأمامي، وإذا بنيران تنفتح من مسدس تجاه السيارة، وتبادل إطلاق النيران بين الشباب ومطلق النيران، وقتله سالم، ولكن بعد أن أصاب يوسف في كتفه، وكان هو من قتل الشهيد الذي ارتقى على كتف يوسف.

طهّر يوسف ورفاقه المكان خوفًا من وجود أحد آخر، ولكن كان هو الوحيد في المكان.

ركب يوسف ورفاقه السيارة بسرعة وأكملوا طريقهم للعودة، وربط يوسف عصبته الخضراء على إصابته في كتفه اليسرى ليتبدل لونها الأخضر إلى اللون الأحمر بدماء يوسف، وكان يوسف يربط إصابته ويبتسم، فسأله **سالم:** إيش سببها ضحكتك يا يوسف؟ ما يكون اليهودي حاطط لك إشي مخدر بهديته بكتفك.

يوسف: لا، بس شوفوا ما أجمل نصيب أخونا الشهيد، نزلنا من سيارتنا بحكمة ربنا، علشان نجيب ثأره، ونقتل اللي قتله، ونسمع شهادته. **ونظر إلى كتفه وابتسم، وقال:** وناخد ذكرى منه، كل ما أشوف الرصاصة بكتفي راح أدعي له بدون حتى ما أعرف اسمه، يا شباب لازم نكون بالقطاع بأسرع وقت قبل ما الاحتلال يصحى من نومته وتصعب علينا مهمتنا بالعودة.

فعلًا في تمام الساعة العاشرة صباحًا وصل المجاهدون إلى الحدود، وإذا بكل فئات الشعب الغزيّ يشاركه الاقتحام، وبصعوبة خلّص المجاهدين الأسرى منهم.

يقول أحد الناس: والله لولا المجاهدين، لمات الأسرى على يد الناس.

الفصل الثالث
(نفق الربيع)

وصل يوسف وفريقه إلى النقطة المعروفة سابقًا، وهي فتحة النفق الذي سيمكثون فيه في أثناء قيامهم بمهمة إخفاء الأسرى، وحمايتهم، والحفاظ عليهم لحين تبادلهم أو صدور أوامر جديدة من القيادة، نزل يوسف ورفاقه من الجيب بعد أن آمنوا مكانهم، وتأكدوا من أن أحدًا لم يتعقبهم.

يوسف: نزلوهم بسرعة على النفق، وخد السيارة يا إبراهيم، وأبعدها عن المنطقة، وارجع خلال عشر دقايق، أنا راح أستناك وننزل النفق مع بعض، ما تتأخر.

إبراهيم: تمام إن شاء الله.

بعد أن دخل جميع الأسرى داخل النفق، وكان بصحبتهم محمد، وسالم، وعبد الله، وبعد انتظار يوسف لإبراهيم خارج النفق، قد ظهر إبراهيم بعد إبعاد الجيب عن المكان وكانوا آخر الداخلين للنفق، وأغلقوا فتحته بإحكام.

يوسف: شربتوهم مي؟

عبد الله: شربناهم.

يوسف: افصلوا النساء عن الرجال منهم، أنا راح أتواصل مع القيادة.

سالم: استنى شوي قبل التواصل، إيدك بتنزف يا يوسف بدها مستشفى!

يوسف: لا! تعليماتنا أنه نظل بالنفق حتى لو استشهدنا، المهم الأسرى.

تواصل يوسف مع القيادة وبلغهم بالوضع طرفه، ولم يخبرهم بإصابته خوفًا منه أن يُصدر أمرًا بخروجه من النفق دون عودة.

سالم: أنت حتى ما جبت لهم سيرة عن إصابتك يا يوسف.

يوسف: يا سالم كلها طلقة، هالقيت بنطلعها، تعملش زي خطيبتي.

سالم: يعني أطلع لك الرصاصة بدون بنج حتى؟

يوسف: آه بس قبل الرصاصة كل واحد فيكم يكلم أهله يطمنهم، مع العلم هادي المكالمة راح تكون آخر تواصل بينا وبين أهالينا لبعد الحرب إن شاء الله.

فعلًا الكل طمّن أهله أنه عايش، ولكن بمهمة راح تنتهي بعد الحرب، وما راح يقدر يتواصل مع أهله بعد ها المكالمة.

وصل الدور ليوسف، فقال: يا سالم، طلّع الرصاصة من كتفي وأنا بحكي مع أمي، فوالله إن الوجع وصوت أمي لا يجتمعان بمكان واحد.

جرس الهاتف يرن

يوسف: السلام عليكم يمّا، هاد أنا ابنك يوسف.

والده يوسف: يمّا يا حبيبي يمّا، ي روحي يمّا، وينك يا نور عيني؟

يوسف: شفتي يمّا، شفتي كيف كسرنا شوكة الصهاينة.

والدته: أنت وين؟

يوسف: تقلقيش عليا؛ أنا رجعت، لسه مش مكتوب لك تكوني أم شهيد.

بس أنا بمهمة ما راح تنتهي قبل نهاية الحرب ما راح أقدر أتواصل معكم بعد هيك، ما تقلقي عليا وطمني أبويا وهبة.

والدته: يا حبيبي رافعة راسي فيك دنيا وآخرة، الله يرضى عليك ويردك سالم يمّا.

وإذا بصوت متعب منهك هادئ قليلًا يقول: وينك؟

يوسف: شفتي يا هبة؟ شفتي يا أم عمر كيف دسنا رؤوسهم؟

هبه بشهقة بكاء: ارجع لي يا يوسف، أربع ساعات ما قدرت أتحمّل بعدك، كيف بدي أكمل باقي حياتي وأنت مش فيها! ما تظلمني وتروح وتاخد روحي معك، ارجع لي يا أبا عمر.

يوسف: ديري بالك على حالك يا هبة، وإذا كان نصيبي الشهادة وانتهت قصتنا، فهنيئًا لأحدهم بقلبك يا صاحبة السلسلة.

أمسكت هبة السلسلة، وكانت متدلية على صدرها وكانت خريطة لفلسطين، فقبّلتها وهمست بصوت يكاد لا يُسمع، حاولت أخبي حبك عن يوسف علشان يحبني أكتر منك، بس ما قدرت، بالواقع أنا بحبك أكتر من يوسف والله.

أغلق الهاتف وكان سالم قد أخرج الرصاصة في أثناء المكالمة كما أمره يوسف،

وكذلك ضمد جروح الأسرى من بعض الندوب الخفيفة،

فكان سالم هو عنصر الإسعافات الأولية بالفريق،

وكانت تلك وظيفته الأساسية داخل النفق،

وجلس الخمس شجعان مع الأسرى في نفس الثكنة، قابضين على زنادهم، يتناوبون النوم؛ كي لا تغفل أعينهم عن الأسرى.

والأمل يملأ صدورهم بأنهم يملكون الورقة الأهم في تاريخ القضية الفلسطينية، والحاجز الصلب بينهم وبين إخوانهم في سجون الاحتلال سيُكسر بهذه الورقة، فلا مكان لأخطاء، كل منهم يعرف مهمته داخل النفق.

بعد أن تم إغلاق جميع الهواتف داخل النفق

يوسف مخاطبًا الأسرى: في حدا منكم بيحكي عربي؟

القائد وكان برتبة قائد: آه أنا بحكي عربي، أنتو شو بدكم منّا؟

يوسف: هه إحنا الي بدنا؟ أصل الحكاية أنتو اللي شو بدكم منّا ومن أرضنا؟ يعني بعد ٧٦ سنة وجربتوا فينا كل الطرق وكل المجازر الممكنة عشان نسلم ونتنازل عن أرضنا، ما فهمتوا أنه ما راح نسيبها ولا نفرط بحبة رمل منها! هاي الأرض أرضنا بسماها، وهواها، وشجرها، كل ما فيها إلنا وأنتو راح تظلوا أغراب.

ما علينا، خلاصة القول، اسمعني علشان تترجم لرفاقك كلامي،

أولًا أنتو أسرى حرب وراح يتم التعامل معكم بإنسانية،

وبرحمة الدين الإسلامي، وبوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وراح نحافظ عليكم وعلى أرواحكم بإذن الله.

يعني حتى لو اجتمع العالم كله عشان يئذيكم، ما راح يقدر يعمل لكم أي إشي، وإحنا عايشين وفينا نفس

مهمتنا نحافظ عليكم أكتر من أرواحنا، بمعنى ما راح يحصل لكم أي ضرر وإحنا على قيد الحياة بإذن الله،

وأي إشي راح تحتاجوه من أكل، وشرب، ولبس، ومستلزمات، ودواء متوفر هنا وراح نلبي كل احتياجاتكم بإذن الله.

الضابط: إحنا ما بدنا منكم إشي، إحنا بدنا نرجع على وطنا، أصلًا دولتنا ما راح تتركنا بين أيديكم، وراح تدفعوا ثمن فعلتكم أنتو وكل المخرّبين.

يوسف: ومين حكا إنه ما راح نرجعك لوطنك؟ راح ترجع وأنت رافع راسك علشان تحكيلهم على خيبتك، ههه بس راح ترجع بشروط

المقاومة علشان في إلنا أحباب بسجونكم ماخدين منا وعد ما ننساهم ونردهم لديارهم، وبعد هيك يا حضرة الضابط، حفاظًا على كرامتك ما تتكلم بدون إذن، مفهوم؟

بعدين أي محاولة منكم للهرب أو إيذاء عناصري، ستقابل بعقاب شديد، وسيكون مصيرها الفشل بالتأكيد، لأنكم بقلب غزة وهو المكان الوحيد الذي ليس لكم عليه سلطان، ولن يكون بإذن الله.

وأيضًا لكم كامل الحرية بممارسة طقوسكم، وإقامة صلواتكم، وعبادتكم لدينكم، يعني إنكم أحرار في دينكم، ولن نضايقكم ونرغمكم على أي شيء.

اشرح كلامي وتعليماتي لجنودك.

فعلًا مضى يوم السابع من أكتوبر المجيد، وكانت شمس ذلك اليوم هي أجمل شمس تشرق على أرض الوطن منذ النكبة، وقد عاش الشعب الفلسطيني يومًا تاريخيًّا في قضيته منذ نشب الصراع مع الكيان الغاصب، ولكن ما كان متوقعًا هو عنجهية الاحتلال بالرد، وقتل المدنيين والأطفال والنساء، فهو الجيش الذي عرّف عن نفسه بلا أخلاقيات دائمًا.

يوسف: اجتمعت الحكومة الإسرائيلية وشكّلت مجلسًا للحرب وحكومة طوارئ، وهو الأمر الذي لم يحصل منذ عقود مضت، وإن دل ذلك على شيء، يدل على جدّية الحرب القادمة، وأنها ليست تصعيدًا فحسب، فقد أجمع سياسيو وعسكر الاحتلال على إبادتنا يا أخوان، فلنتعامل مع الموقف بهذه المعطيات، ونجعل حساباتنا وفقًا لذلك.

يعني ممكن ها الحرب تمتد لشهور، وممكن سنين، يعني لو ما تعاملنا بحكمة، ممكن ما نموت من الحرب، ونموت من الجوع أو العطش لا قدر الله.

الظابط: شو يعني أنتو خاطفينا؟ علشان تموتونا من الجوع والعطش؟ سلمونا للجيش وأنا بضمن لكم حياتكم، وكمان تسافروا، ومستقبلكم ما في إشي بيستاهل تروحوا حياتكم علشانه، أنتو كلكم لسه شباب والعمر قدامكم، أنا بضمن لكم مستقبلكم، وعد.

يوسف: أولًا، صح أنا حكيت ما تحكي بدون إذن مني؟

ثانيًا، حياتنا ومستقبلنا وشبابنا اللي بتحكي عنهم كلهم مبنيين على زوال دولة إسرائيل، يعني أي مستقبل مزهر إلنا ولكل شباب الوطن لازم يكون بدايته انهيار دولتك المزيفة.

ثالثًا، كما تعلمنا في ديننا وصراع تاريخنا وتاريخكم، أن الصهاينة قتلة الأنبياء، أمثالكم لا وعد ولا عهد لهم، أنتم ناقضو العهود على مر التاريخ أيها العسكري صاحب البدلة المزيفة.

عليك أن تغلق فمك الآن قبل أن أجعلك تتمنى أن تغلقه من شدة الألم، وإن تحرك لسانك السام مرة أخرى، أعدك أنك سوف تندم أنك حركته.

عبد الله، أحصِ لي كمية الأكل والشرب داخل النفق.

عبد الله: عشر دقايق بيكون صار إن شاء الله.

جلس المجاهدون لا شيء يشغلهم إلا الصلاة، والدعاء، والأذكار، وقراءة القرآن وأعينهم على أمانتهم لا تغفل عنها طرفة عين.

عاد عبد الله بعد فترة من الغياب في حجرة المؤن.

عبد الله: بحمد الله يا يوسف، عنا أكل وشرب يكفينا ويكفي الأسرى لثلاثة شهور، الأمور تمام، القيادة حاسبة حسابها منيح، تقلقش.

يوسف: ما تكون واثق يا عبد الله، هاي الحرب أطول بكتير من ثلاثة شهور، مع إني أتمنى أن أكون مخطئ في تخميني، ولكن لازم نحط أسوأ الاحتمالات وناخد بالأسباب.

محمد: طيب شو ممكن نعمل يا يوسف عشان ناخذ بالأسباب؟

إبراهيم: قصد يوسف إنه نقتصد بالأكل من البداية، وبدل ما يكفينا الأكل والشرب لتلات شهور، يكفينا لفترة أطول.

يوسف: الله ينور عليك يا إبراهيم، بالظبط، يعني راح ياخد الأسرى وجبتين باليوم بدل ثلاث وجبات،

وراح ناخد إحنا وجبة واحدة بس، يعني راح نعتبر نفسنا صايمين بدون سحور، نسأل الله يكتب لنا الأجر والثواب، وليكتب لنا أجر الرباط وأجر الصبر على الجوع.

وافقوا جميع الشباب بدون تردد لحكمة قائدهم وفطنته، ويملؤهم الإيمان بقرار يوسف.

مضى الشهر الأول من الحرب دون متاعب على من هم داخل النفق ولكن كل من كان خارج النفق في غزة كان يقصف ويحرق دون أن يُلتفت لسنه ولا لجنسه، فقط لكونه فلسطينيًّا؛ حيث كان يشاهد المجاهدون الخمسة قتل المدنيين من أبناء شعبهم دون حيلة لهم لفعل شيء.

يعلمون أن مهمتهم داخل النفق أهم من الدنيا ومن فيها؛ فهي أمانة حمّلهم إياها كافة أطياف الشعب الفلسطيني، ويجب الحفاظ عليها.

وكانوا يتابعون الأخبار على شاشة التلفاز حتى ظهر خبر عاجل على الشاشة كان بمثابة صدمة على الجميع، نعم، لقد استهدف الجيش الصهيوني بيت عائلة المجاهد سالم دون سابق إنذار، وقد كان كل أهله داخل البيت، نعم، استشهد كل أهل سالم داخل المنزل وبقي هو داخل نفق الحرية.

عانق يوسف سالم وواساه ببعض العبارات، علّها تبرّد نار قلبه قليلًا.

سالم: الله يتقبلكم يا حبايب قلبي، حسبنا الله ونعم الوكيل.

كل أهلي شهداء إلا أنا، يا رب ألحقني فيهم شهيدًا.

راح أبويا، وأمي، وأخويا محمد ومرته، وولاده، وبناته، يا رب صبّر قلبي يا رب.

(لسنا مثلهم، ولن نكون)

يوسف: هادي هي عنجهية الاحتلال، ما بقدر يواجهنا زي الرجال، ولكن بيقصف النساء والأطفال والشيوخ، لكن والله لن تُكسَر عزيمتنا، لن ينالوا منّا، والله مولانا.

لكن صغيرهم لم يكن بتلك الدراية ولا تلك العقلية، فقد كاد أن يطيح بالمهمة ويفرّط في الأمانة.

كان محمد صاحب الثمانية عشر عامًا صغير الفريق، ولم يكن يمتلك الثبات الانفعالي، فقد حرقته دموع سالم على أطفاله وأهله من النساء، ولم يتمالك نفسه.

نطق محمد بعد صمت الفريق لمدة،

وقال: ليش إحنا لازم نكون الطرف الرحيم والمتسامح بالقضية؟ ليش لازم نشوف أطفالنا ونساءنا بيموتوا قدام عينّا وإحنا نحافظ على

نسائهم وأطفالهم وما نقتلهم؟ حتى ها دول الكلاب قاعدين بنعاملهم أحسن معاملة، وبالمقابل شو؟ بيعذبوا، وبينكلوا بإخوتنا بسجونهم، ليش؟ لازم يدفعوا التمن لازم.

نهض محمد وكانت عيونه مثل شرارة نار لا تخمد بنهر من ماء، تقدم محمد نحو الضابط وأمسكه من قميصه وسحبه،

وقال: هي هادي دولتك؟ هي هادي قوة دولتك اللي بتتباها فيها؟ رد عليا، أنت مشيت معنا من عسقلان لغزة، شفتنا قتلنا طفل؟ شفتنا قتلنا امرأة؟ احكي.

شفتنا قتلنا بريء؟

يوسف: اهدا يا محمد، اهدا.

محمد: ما راح أهدا يا يوسف، العين بالعين، والسن بالسن، والبادي أظلم.

وما إن أكمل جملته حتى التقط سلاحه، وعمّره بالذخيرة ووجَّهه نحو الضابط بغضب شديد،

وقال: لا يا يوسف، دم أهل سالم، ودم كل الأبرياء من أبناء شعبنا ما راح يروح هدر، ما راح يروح دون حساب.

يوسف: نزل البارودة يا محمد، إحنا مش زيهم، ولا راح نكون بعمرنا زيهم.

إبراهيم: شو يعني يا محمد؟ بتفكر إنه أنت بس اللي محروق ومقهور على دمنا اللي بيسيل وإحنا عاجزين؟

بس الحل مش قتل العزل يا محمد، نزل سلاحك.

عبد الله: الله يهديك يا محمد نزل سلاحك، وروح توضى وصلي ركعتين، بترتاح إن شاء الله.

يوسف: نزل سلاحك يا محمد، نفذ الأمر.

محمد: ما راح أنفذ الأمر يا يوسف، ها الحقير لازم يموت.

يوسف: عارف هادي الطلقة اللي راح تطلع من بارودتك شو تمنها يا محمد؟

أولًا، راح تحكم على مائة أسير من إخواننا على الأقل بحرمانهم من الحرية، لأنك قتلت أملهم بالنجاة، وهو هذا القائد.

ثانيًا، راح تحكم علي بإني أتعامل معاك كأسير، بدل ما تكون معي، راح تكون عبئ عليّ.

نهض سالم بعد أن كان غارقًا في دموعه ومنهارًا، وتقدم نحو محمد، فأصبح بين القائد ومحمد، وأصبحت فوهة بندقية محمد موجهة لوجهه بعد أن كانت موجهة لوجه القائد.

وقال: أهلي راحوا فداء للوطن والدين، وأنا أكثركم حزنًا وحرقةً، ولكن يا أخي بعمرنا مارح نكون زيهم، ولا دينّا ولا أخلاقنا بتسمحلنا نعمل هيك.

أهلي راحوا عند ربنا اللي أحن مني عليهم، ربنا يتقبلهم ويجمعني فيهم بجنات خلد إن شاء الله.

حتى لو استشهد كل أهلنا يا محمد، ما راح نئذيهم، ها دول أملنا بتحرير إخواتنا.

طأطأ محمد رأسه وبكا بحرقة، وأنزل بندقيته وعانق سالم بقوة،

وقال: ما قدرت أتحمل موت أطفالنا وأضل قاعد عاجز قدام ها الكلاب، ما قدرت والله.

يوسف: بأمر مني، محمد سلم سلاحك لعبد الله، ومهمتك من الآن هبطي فقط فرعية، وليست رئيسية، وسيتم إخراجك من النفق في أقرب فرصة متاحة، انتهى.

محمد: بس أنا ما راح أسيبكم حتى لو متُّ يا يوسف.

يوسف: أنت سبتنا فعليًّا لما ما نفذت الأمر.

سلم محمد سلاحه لعبد الله بخجل وانكسار، واصبحت مهمته مراقبة فتحة النفق فقط.

سالم: أنت عارف يا يوسف إنه محمد أصغرنا وأكيد ما كان يقصد يعصي أمرك، وكمان أكيد ما راح يكرر عصيانه مرة أخرى.

يوسف: شو يعني يا سالم؟ راح أضل خايف كل مرة أعطيه أمر راح ينفذه ولا لا.

قراري لا رجعة فيه، محمد راح يغادر النفق بأول فرصة، ما راح أخلي حبي لمحمد يأثر على المهمة، انتهى.

وكلامي للجميع المهمة فوق كل اعتبارات بينا، ما راح أضيع كل ها التضحية لشعبنا بشوية طيش من أي حدا.

إحنا ما بنمثل نفسنا يا إخوان، إحنا بنمثل كل الشعب الفلسطيني.

يعني إذا خرج منّا خطأ، فهذا الخطأ يُنسب لشعبنا،

لازم يكون عنّا مسؤولية، ونحس بقيمة الأمانة اللي حاملينها على عاتقنا.

كانت تلك الكلمات كفيلة بأن تعيد المجاهدين لطريقهم الصحيح وهدفهم المنشود، وجعلهم يفكرون مائة مرة قبل القيام بعمل صديقهم محمد، وكان هذا هدف قائدهم يوسف من عقاب المجاهد محمد.

وبعد تلك الحادثة مرت الأيام دون مشكلات، ومكث المجاهدون قابضين على سلاحهم إلى أن صاح اللاسلكي أخيرًا بعد ثلاثة شهور من بداية الحرب.

(يوم الصفقة)

نعم، لقد تواصلت القيادة مع يوسف أخيرًا بعد ثلاثة شهور.

القيادة: يوسف، هل تسمعني؟

يوسف: نعم، أسمعك بوضوح.

القيادة: الوضع طرفك ووضع الأمانة يا يوسف؟

يوسف: الأمانة تُصان كما يُصان العرض، لا جديد سوى التحيات.

القيادة: توصلت القيادة لصفقة تبادل مبدئية مع الاحتلال؛ لاسترداد بعض من أسرانا مقابل النساء.

يوسف: نحن رهن الإشارة إن شاء الله.

القيادة: مهمتك تجهيز النساء لإخراجهم مع عنصرين من طرفك خلال الأربعة وعشرين ساعة القادمة.

يوسف: جيد، استلمت.

نعم، استمع كل الجنود لأوامر القيادة على جهاز اللاسلكي، وساد الصمت والحذر كل أرجاء النفق.

نظر الجميع إلى يوسف لأنه صاحب القرار داخل النفق، الكل حذر من المبادرة والنطق حتى بكلمة واحدة، نعم، الكل يريد البقاء وإكمال المهمة حتى نهايتنا، كان الجميع يعلم أن محمد هو المغادر الأول لفتحة النفق، لكن كانت الحيرة بأفكارهم: من هو المجاهد الآخر الذي سيترك مكانه ويخرج؟

أخيرًا كسر الصمت صوت يوسف بعد عشرين دقيقة مضت على المجاهدين، كأنها عشرون عامًا من الانتظار.

يوسف: الحرب لم تنتهِ هنا كما توقَّعنا في بداية المعركة، ولكن الظروف قضت أن مهمة اثنين منا انتهت لحد هنا بتعليمات القيادة كما استمعتم، بس مين عارف قديش في مهام بتحتاج لكم خارج النفق،

يعني نهاية المهمة بالنسبة إلكم في بداية مهمة جديدة، وممكن تكون أهم بكثير من مهمتنا هنا بالنفق.

تقدم محمد خطوة للأمام بعد أن أنهى يوسف حديثه للجميع، فنظر إلى إخوته دون أن يرفع رأسه وينظر إلى أعينهم حتى،

وقال: أنا عارف إني غلطت، وعارف كمان إني عرَّضت المهمة للخطر، وكمان راضي بأي أمر راح تعطيني إياه يا يوسف، لكن بدي تعرفوا كلكم إني ما كان قصدي، كان نفسي أظل معكم لآخر المهمة ونطلع بعيد النصر، لكن أنا راضي بحكمك، بس ما بدي أطلع من النفق وحدا فيكم زعلان مني، يمكن يكون هاد لقاؤنا الأخير وما نجتمع بها الدنيا مرة تانية.

سامحوني.

تقدم يوسف نحو محمد، ومسح على شعره، احتضنه

وقال: إحنا ما زعلنا منك أصلًا عشان نسامحك، أنت أخونا الصغير وشريك بنجاح هذه المهمة إن شاء الله،

لكن المهمة انتهت بالنسبة إليك، وإذا ما تقابلنا بالدنيا، أكيد راح نتقابل بالجنان إن شاء الله.

بعد نهاية الحديث بينهم، وفصل الأمر، وتأكد خروج محمد، بقي السؤال الآن، من هو العنصر الثاني المغادر لعين النفق؟ الكل يريد دفع تلك العاصفة عنه والبقاء هنا.

سالم: أنا راضي إذا ظليت بالنفق أو إذا غادرت، فإذا ظليت بالنفق فسأكون مرابطًا على ثغره، جهادي هنا، وإذا غادرت، فسأكون مرابطًا في أرض غزة الطاهرة، لكن يا يوسف أنا عنصر الإسعاف في الفريق، وأعتقد أن وجودي هنا معكم ومع الأسرى ضروري.

بعدين أنا أهلي اللي كانوا مستنيين رجعتي استشهدوا، يعني خروجي من نفقنا هذا سيكون بمثابة دخول لنفق وحدتي على سطح تلك الأرض.

بعد أن ابتسم يوسف، وتقدم نحو سالم، ووضع يده على كتفه

وقال: ريّح قلبك وتفكير عقلك يا سالم، أنت راح تظل بالنفق بدون هذه الحيل لإقناعي، أنت باقي بالنفق لأنك تستحق البقاء ولأننا بحاجة إليك هنا.

انتهى الأمر، أنا وسالم راح نبقى، ومحمد راح يغادر النفق، الآن ضايلين أنتو يا عبد الله وإبراهيم، واحد منكم راح يطلع والتاني راح يظل، وعلى فكرة اللي راح يظل مش أحسن من التاني بإشي، أنتو الاتنين نجحتوا بالمهمة.

إبراهيم: بحيات حبيبك النبي يا عبد الله تسيبني أكمل، وما تحرمني من إني أضل.

يوسف: لا يا إبراهيم اللي راح يضل عبد الله، لأنه هو المسؤول عن أدوية الأسرى ولأنه عارف وجبات ومستلزمات الجنود، وطبيعة أكلهم وشربهم.

شهق عبد الله شهقة ارتياح، وكأنها أزاحت صخرة عن صدره، ولم يتمالك إبراهيم دموعه بسبب حسرته،

نعم، حُسِم الأمر سيبقى يوسف، وسالم، وعبد الله، وسيغادر محمد وإبراهيم مع الست أسيرات خلال أربعة وعشرين ساعة، وهذه آخر سويعاتهم بنفق الحرية.

وقف يوسف أمام الشجعان، ونظر إليهم،

وقال: لقد كان من دواعي سروري أن أدخل الغلاف معكم يا أبطالي، وشرف عظيم أن أشارككم هذه المهمة العظيمة.

سالم وعبد الله، اكتبوا رسائل تطمنوا فيها أهلكم، راح نبعتها مع الشباب إن شاء الله.

سالم: أنا رسالتي وصلتها بالدعاء يا يوسف، أنا ما إلي حدا خارج النفق ينتظر رسالة مني،

كل أهلي وأحبابي يسكنوا المقابر، وما راح أكتب رسالة.

عانق يوسف سالم وواساه بكلمات حنونة من أخ لأخيه، ليضمد بعض جراح قلبه على أهله.

وبعد أن أخلد الأسرى إلى النوم في تلك الليلة، وكانت حراسة الأسرى تدور بين المجاهدين بالمداورة؛ حيث كان ينام بعضهم، ويبقى بعضهم ضاغطًا على زناده حارسًا للأسرى؛ حيث كانت مناوبة الحراسة في تلك الليلة على عاتق سالم وإبراهيم.

دخل يوسف حجرة الأسرى في منتصف الليل.

يوسف: يعطيكم العافية يا إخوة.

سالم: تعالَ يا يوسف، الشايات لسه دافيين، خليني أصبلك كاسة.

يوسف: صب، ربنا يصب لك الحسنات صب.

جلس يوسف بجانب إبراهيم،

وقال: مالك يخي حامل هموم الدنيا كلها على ظهرك؟

بعدين سبب حزنك أنه راح تطلع من النفق، طلعتك من النفق أكيد فيها خير، وأكيد ربنا عنده حكمة،

مين عارف شو بيستناك برا، يعني لازم تكون قوي وجاهز تسمعنا أخبار حلوة وتثار لشعبنا من ها الكلاب،

أنا بعرفك يا إبراهيم، عقلك كبير وفهمان، ما تخذلني.

وأمانة عليك سامحنا لو قصرنا بيوم بحقك.

كان الحزن يمتلك قلب إبراهيم وهو بحاجة ماسة لكلمات يوسف التي كانت كفيلة بأن تطفئ النار التي كانت تأكله من الداخل دون أن يخرجها على لسانه خوفًا من أن يجرح أحدًا من رفاقه.

(رسالة للحبيبة)

بعد أن أنهى يوسف مهمته في إطفاء نار صديقه إبراهيم داخل النفق،

حان الوقت لأن يطلق نهر كلماته لتخرج خارج النفق، وتطفى نيران قلوب طال اشتياقها له،

دخل لزاوية أخرى من زوايا النفق، والتقط قلمه ومريقاته، وأخذ يكتب رسالته، **وكانت:**

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمه الله

أمي، أبي، أختي امل، حبيبتي هبة،

أطمئنكم على نفسي، ما زلت رابطًا على نقطة رباطي، محافظًا على قضيتي وأمانتي، مقتديًا بسنة رسولنا الكريم، وبعد،

أولًا. أمي ومهجة فؤادي، قد فاق اشتياقي إليك كل كلام الدنيا، أسال الله أن يكون لنا لقاء قريب، لا تحرميني من دعائك الجميل الذي لطالما رافقني في دنياي.

ثانيًا، والدي الحبيب ومعلمي في هذه الدنيا، لقد كنت خير قدوة لي بعد النبي صلى الله عليه وسلم، وكل نعمة حصلت لي أنت السبب فيها، وهي بفضلك بعد الله تعالى.

ثالثًا، شقيقتي وبئر أسرار طفولتي، لقد كنتِ خير أخت تمنيتها في هذه الدنيا، وأسال الله أن نجتمع بالآخرة أيضًا.

رابعًا وأخيرًا: مهجة القلب ورفيقة الدرب، حبيبة الفؤاد، يا من أحببتها قلبًا وعقلًا، وتمنيتها سرًّا وجهرًا، ودعوت بها في صلاتي سُنةً وفرضًا بأن تكون نصيبًا لي في الدنيا وجنةً تساويها عرضًا.

هذا أنا صاحب السلسلة الملتفَّة على عنقك،

حبيبتي هبة أسأل الله أن يربط على قلبك إن لم يكتب لي العودة من المعركة، وأن تكوني صابرة على الفراق،

أما إن كُتِب لي العودة من مهمتي ولم تُكتَب لي الشهادة، فأعدك أن نقيم عرسًا جميلًا بعد عرس الانتصار، وعرس فك قيد إخواننا الأسري في سجون الاحتلال إن شاء الله.

لقد كنت محظوظًا جدًّا بك للحد الذي جعلني لا أتمنَّى شيئًا غيرك في هذه الدنيا.

ولم أتمنَّ شيئًا كما تمنيت أن يجمعنا بيت واحد،

لكنني يا حبيبتي لم أتمكَّن من رؤية أخواتنا يُنكَّل بِهِنَّ في باحات المسجد الأقصى دون أن ألبِّي نداء الجهاد والدفاع عنهن، فسامحيني.

(يوم الصفقة)

مرت الساعات الأربعة والعشرون على مَن هم داخل النفق، وتجهَّز محمد وإبراهيم والست أسيرات، وجلس الأسود ينتظرون ميعاد القيادة للخروج ومكان التسليم.

وأخيرًا في تمام الساعة الرابعة عصرًا، صاح جهاز اللاسلكي بالنداء المنتظر.

القيادة: حان الوقت أيها الشجعان، ستخرجون في تمام الخامسة بعد أن تتخذوا الاحتياطات اللازمة، ستصحبون الأسيرات لنقطة التسليم وتنتظرون إشارتنا، عُلم؟

يوسف: عُلِم، ويُنفَّذ إن شاء الله.

وكان قد بقي نصف ساعة على الوقت المحدَّد للتسليم، نصف ساعة كانت كفيلة بأن تُذرَف خلالها الكثير من الدموع، بين دموع الفرح ليوسف وأصدقائه بتحرير إخوتهم من سجون الصهاينة، وبين دموع الفراق بين الخارجين والباقين منهم.

. (التضحية من أجلهم)

ونفِّذت خطة القيادة بنجاح وتم التبادل.

وشاهده يوسف وأصدقاؤه من داخل النفق، وكانوا كأنهم امتلكوا كل الدنيا بفرحة المحررات والمحررين من أسراهم.

وبعد أسبوع من صفقة التبادل، انتهت الهدنة بين المقاومة والاحتلال، وعادت الحرب لضراوتها، بل أشد ضراوة من السابق.

ولأن لا عهد لليهود ولا وعد، فقد كانت طائرات الاستطلاع الصهيونية قد صوَّرت ورصدت خروج الأسرى والمقاومين من فتحة النفق، وما إن انتهت الهدنة حتى قصفت عين النفق وأُغلق مخرجه كاملًا، وتحاصر المقاومون والثمانية جنود في النفق، وقد تضرَّر أكثر من نصفه.

يوسف: خليك هنا يا عبد الله مع الأسرى، وتعالَ يا سالم معي.

عاد يوسف وسالم بعد أن تفقدا أضرار النفق.

عبد الله: طمنوني، إن شاء الله بسيطة، مالكو ساكتين، إيش صار؟

سالم: إحنا يا عبد الله محاصرين داخل النفق، والاتصال مقطوع بينا وبين القيادة، وما حدا عارف شو راح يصير بعد هيك.

عبد الله: إيش اللي بدو يصير يعني؟ بدنا نستشهد ونفوز بجنة عرضها السماوات والأرض، مش هاد وعد ربنا ي إخوان وطريقنا كله عشان نكون شهداء؟

يوسف: ما حدا راح يستشهد قبل ما نسلم ها الكلاب وناخد إخوتنا، إحنا إلنا مهمة ولازم ننفذها، راح نعمل كل إشي علشان ننجح بإذن الله.

عبد الله، إيش وضع الأكل والشرب؟ لازم نظل صامدين لآخر نفس فينا علشان نحافظ على الأسرى.

عبد الله: ضل أكل يكفينا لشهر واحد إحنا والأسرى، وكمان ضايل ٥ كيلو تمر.

يوسف: اسمعوني منيح يا إخواني، الأكل اللي ضل ما إلنا نصيب فيه، يعني الأكل راح يكون للأسرى فقط، وبدل ما يكفينا شهر إحنا والأسرى، راح يكفي الأسرى وحدهم ثلاثة شهور،

سامحوني يا إخوتي، راح أقسى على نفسي وعليكم.

راح يكون أكلنا في هذه الثلاثة أشهر ثمرة واحدة الصبح، وثمرة تانية بعد ما نصلي المغرب.

نعم، لقد تأكد يوسف من الخطر القادم، وأن مهمته للحفاظ على الأسرى قد تزداد صعوبة مع مرور الوقت، ولكن تماسك يوسف، استجمع قواه وأظهر قوته وصلابته من الخارج لسالم وعبد الله، كي يحافظ على معنوياتهم، ولكن كان متهالكًا من داخله خوفًا على أمانته التي تربط مصير العديد من الأسرى في سجون الاحتلال وذويهم، من الذين ينتظرون الصفقة الكبرى التي تعيد أبناءهم إلى ربوع الوطن بسلام.

وبعد صمت قد دام أكثر من ساعتين تقريبًا، كسر ذلك الصمت صوت يوسف.

قائلا: ما لكم يا إخوان؟ إيش اللي صار يعني؟ وكأنَّ أحدًا منا يملك نفسه ومصيره، أم أن عين النفق هي من تملك إخراجنا من هنا؟ ذهبت عين النفق وبقيت عين الله التي ترعانا، نعم، الله معنا، ألا يكفيكم ذلك؟

كانت تلك الكلمات من يوسف كفيلة أن تزرع الأمل في قلوب أصدقائه والبسمة على وجوههم، التي كان يملؤها الإيمان بالله والتسليم له.

ولكن في الواقع، إن الذي كان بحاجة لتلك الكلمات هو الشخص المتصالب أمامهم، فقد كان يوسف أكثرهم حاجة إلى تلك الكلمات وتلك البسمة.

أسند يوسف ظهره إلى حائط النفق الطيني وبدأ يتخيَّل حلمًا طال انتظاره، فقد كان ذلك الحلم عرسًا جميلًا يقام في شوارع غزة بكل بيوتها، وشوارعها، ومساجدها، زُينت استقبالًا لأولادها المحررين من خلف القضبان، والكل يُهلِّل ويعانق أحبته.

فتح يوسف عينيه ببطء كأنه لا يريد أن يفتحهما وأن لا يعود لواقعه الذي لا يعلم ما نهايته، وكيف ستكون.

ولكن بقي لديه شيء واحد يعيش لأجله، وهو أمله بالله وحده، وأنه لن يكله إلى نفسه.

وقد مر شهر ونصف على تلك الحالة، وكل يوم يتكرر عليهم داخل النفق دون جديد يُذكَر؛

حيث انقطعت كل سبل معرفتهم بما يحصل خارج النفق بعد انقطاع الكهرباء عن النفق، ولم يعد لديهم سوى بعض الشموع التي تضيء لهم عتمة النفق، وساعات يديهم التي كانوا يحسبون بها أيامهم ليعرفوا أيام الأسبوع من خلالها، وبعضهم كان يحفظ مصحفه في جعبته، والآخر كان يحفظه في قلبه، فقد كان يوسف حافظًا لكتاب الله، وكانوا يرتِّلون الآيات جهرًا ليلًا ونهارًا،

ويناجون ربهم أن يجعل لهم مخرجًا من ذلك النفق الذي كان لهم بمثابة الأمل الوحيد لكل الفلسطيني.

ولكن دائمًا كانت الرياح تمشي بما لا تشتهي سفن يوسف وأصدقائه، وحصل ما قد لا يحمد عقباه؛

بعد شهرين من خروج الأسيرات من النفق وقصفه،

وفي يوم من أيامهم المتكررة

صاح عبد الله من غرفة المؤن مناديًا يوسف وسالمًا بصوت مرعب.

هرع يوسف وسالم لمكان عبد الله، وإذا بمصيبتهم قد اقتربت من الوصول.

عبد الله: لاحظت وأنا بتفقد المؤن أنه ما ضل عنا غير قلن مية واحد، يعني عشرين لتر تقريبًا، ما راح يكفونا أكتر من أسبوع على أبعد تقدير.

سقط يوسف على ركبتيه وقد تمكَّن منه الانهزام، نعم، كيف لا وقد شعر بخطورة الموقف وأنه على بعد خطوة واحدة من أن يخسر كل شيء، وذلك بموت الجنود.

بعد أن تمالك يوسف نفسه، وتمسَّك بأمله بالله، وأنه لن يضيع تعبه وأصدقاءه،

ورجعوا إلى حجرة الأسرى ووقفوا بعيدًا عن الأسرى بقليل؛ بحيث يمكن للأسرى أن يروهم ولا يمكنهم سماعهم.

وقال: راح أقسى عليكم وعلى نفسي يا أبطالي غصب عني، ولكن مصلحة الوطن ومصلحة شعبنا أهم من مصلحتنا، وأهم من أرواحنا حتى.

من الآن لن يكون لنا وضوء، بل تيمم برمال نفقنا الطاهر، ولن نشرب الماء إلا رشفة واحدة يوميًّا،

فقد منَّ الله علينا بأن يختبر صبري وصبركم بقلة الماء لدينا، وانقطعت كل سبل الأرض بنا،

لكن لم ينقطع بنا حبل السماء، نعم، بقي لنا حبل الله الذي لم ولن ينقطع بإذن الله.

عبد الله: الحمد لله حتى يرضى وجهه الكريم، اللهم إنا نُشهِدك بأننا رضينا وسلمنا إليك أمرنا.

سالم: راح نعمل كل إشي يا يوسف علشان نحافظ على ها الكلاب، ولكن إذا نفذ أمر الله علينا، تأكد أننا، فالحمد لله على كامل قضائه.

نعم، اتفق الثلاثة أسود بالإجماع ودون تردد للحظة بأنهم سيؤثرون على أنفسهم، ويضحون بها من أجل تراب الوطن، وأنهم سيبقون على عهد الأوفياء الذين عاهدوا أسراهم أنهم لن يكلوهم لسجانهم ما بقيت الروح بأجسادهم.

مضت أيامهم الثلاث برشفاتهم الثلاثة الأولى، وبدأت تظهر عليهم أعراض التعب وقلة التغذية، فقد كانوا يصلوا صلواتهم وقوفًا، ولكن بتعب وإرهاق شديد.

وفي يومهم الرابع، بدأت أجسادهم تكاد ألا تقوى على الوقوف،

بينما كان الجنود الثمانية يشربون الماء كلما اشتهوا ذلك، وكان ذلك أمام المجاهدين الثلاثة دون أن يشتكوا ولو بكلمة واحدة.

وكان يوسف يرشفهم المياه، ويطعمهم الطعام بيده، ويترك أصدقاءه ونفسه دون الطعام والشراب للموت البطيء، كان يعرف يوسف أن تلك التضحية المطلوبة تمامًا لبقاء الوطن وقضيته، حتى لو كلفهم ذلك الموت جوعًا.

مرت عشرة أيام على حالهم هذا وقد ظهر على المجاهدين الثلاثة أعراض التعب، والجوع، والعطش، ولم يتبقَّ لهم سوى زجاجة ماء واحدة تعادل لترًا واحدًا، هي الوحيدة الموجودة داخل النفق.

مد سالم يده نحو الزجاجة في الموعد المحدَّد لرشفته، وإذا بيوسف يقول -بعد أن أمسك يد سالم على الزجاجة-:

هذه الزجاجة للأسرى، وليس لنا نصيب فيها يا أخي، عسى أن تكون مهرًا لدخولنا الجنة، وقد يلحق أحد من بعدنا ويدخل النفق وتكون هذه الزجاجة هي التي أبقت الأسرى أحياء من بعد أمن نكون في دار الآخرة.

سالم بصوت يكاد ألا يُسمع: لكن يا يوسف، والله إني أستنا معاد رشفة الماء من مبارح، وجف حلقي.

عانق يوسف سالم وقد فاضت عيونهما بدموعها دون أن يشعرا بها.

بعد ست ساعات تقريبًا فقد عبد الله وسالم قوتهما على الحركة بشكل شبه كامل، وبقيت لدى يوسف بعضها، ولكنه يعلم أن دوره سيأتي أيضًا ويفقدها.

نعم، هم ملقون على الأرض، لا أحد منهم يقوى على الوقوف، وكان يوسف يرشف الأسرى ما تبقى من الزجاجة حتى فرغت أيضًا، وانتهى به الحال بالنظر إليهم ليس إلا.

نظر يوسف إلى رفاقه بحزن، وذهب ليجلب ورقة وقلمًا من مكان آخر بالنفق، ليكتب وصيته الأخيرة، وكان في طريقه يرتكز على جدران النفق لأنه متهالك، ولكنه مجبر على الصمود.

(يوم الوصية)

وصل يوسف إلى الغرفة الموجود فيها الورقة والقلم، وبدأ يكتب وصيته.

بسم الله الرحمن الرحيم

الصلاة والسلام على حبيبنا وشفيعنا محمد، وبعد،

أمي، أبي، أختي أمل

ستقرؤون كلماتي هذه وأنا مفارق لدنياكم الزائلة بحكمة الله وقضائه، أوصيكم بتقوى الله، والاقتداء بسنة رسوله، والتمسُّك بتراب الوطن من بعد، والدفاع عن مقدساته.

لقد كان شرفًا كبيرًا واصطفاء من الله أن أحمل بارودتي وإرادتي، وأدافع عن ديننا ومُقدَّساتنا وشرفنا وعرضنا، وأستشهد في سبيل ذلك. نعم، لقد منَّ الله عليّ أن أقتحم حصون اليهود في أرضنا المحتلة، وأدخلها مُكبِّرًا مهللًا مع إخوتي من الشهداء والعائدين للوطن بسلام،

وكان أيضًا من نصيبي الجميل في هذه الدنيا أن أكون أملا لإخوتي من الأسرى في سجون الاحتلال وأقود مجموعتي في نفق الحرية، وشاء الله أن أكون شهيدًا في ذات النفق قبل أن أرى عرسًا يُقام لأسرانا جميعًا، وعلى وجه الخصوص أصدقائي وأبناء عمي عبيدة وعلي. نعم، لقد حاولت جاهدًا يا علي أن أكسر قيد حكمك الظالم بـ٥٣٠ عامًا وأخرجك رغمًا عن سجانك الظالم، ولكن حكمه الله قضت، وكان أمر الله مقضيًّا.

أخيرًا، حبيبتي هبة،

فلتعلمي أنه لو أعيدت لي روحي مائة مرة، وخلق الله لي مائة قلب، لأحببتك بقلوبي المائة مائة مرة،

وفعلت من أجلك ما فعلت مائة مرة. لقد أحببتك وتمنيتك دائمًا زوجة لي، رضيت بصلاحها أن تكون أمًّا لأطفالي، ولكن إنها حكمة الله، فعليك بالرضا والتسليم لقضاء الله، وأن تكوني خير صابرة وراضية.

أما عن هديتي الغالية لدى عنقك الجميل، وهو ما وجدته غاليًا مثلها، وقصتها التي لطالما خبأتها عنك، فهي هدية من شقيقك وصديق طفولتي عمر، نعم، لقد استشهد شقيقك عمر على كتفي في معركة حجارة السجيل، ولم يكتب لي الشهادة وقتها، ولكن قبل أن يسلم روحه وأمانته لله، قد سلمني أمانة غالية ليسقطها على عنقي، وكانت آخر كلمات عمر:

(هذه أمانتي لك، فقد أُمّنت عليها من شهيد، وها أنا ذا اليوم شهيدًا، وأعلم أنك ستصبح أيضًا شهيدًا، أوصيك أن تسقطها على عنق شهيد آخر من أبناء هذا الوطن، ليكمل رسالة الشهداء).

لم أحمل أمانة غالية بهذا القدر من قبل.

أسقطها اليوم من عنقي إلى عنقك يا حبيبتي، لتسقطيها على عنق طفلك الشهيد.

وضعتها على عنقك لأني أعلم أن تلك الصالحة لن تنجب إلا طفلًا شجاعًا، وسيكون شهيدًا.

إنها ليست هدية فقط يا هبة، إنها أمانتي لديك كما كانت أمانة عمر لديَّ لثماني سنوات.

أتمنى أن أراكِ على حوض النبي يا صاحبة السلسلة.

سقط القلم من يد يوسف، ولم يتمكن من إعادته إلى يده، وطبق ورقته، وكانت الدموع تتساقط عليها، ووضعها في جيبه، وحاول الوقوف، ولكنه لم يقوَ على ذلك.

(عين الله داخل النفق)

أخذ يوسف بالزحف نحو غرفة الأسرى من خلال الممر، وإذا بتدخُّل الله وعونه قد ظهر ليوسف ورفاقه.

بعد أن كان يوسف يرتكز على جدران النفق في طريقه للعودة إلى غرفة الأسرى من خلال الممر المؤدي إليها، تفاجأ بنبع من الماء قد فتح غريره داخل الممر وكأنه نهر، نعم ليست معجزة، ولكن إرادة الله ومشيئته. يوسف على بُعد أمتار فقط من الماء الذي سيعيد الحياة لأصدقائه والأسرى. زحف يوسف إلى الماء بعد أن سقط على ركبتيه من التعب وهو يُكبِّر ويضحك بجنون، ووصل إلى الماء، ووضع رأسه كاملًا في الحفرة الممتلئة بالماء والطين، وشرب يوسف بغريزة البقاء كما تشرب الطيور، وحمد الله على نعمته.

بعد أن أفاق يوسف، كان يجب عليه اللحاق برفاقه والأسرى ونجدتهم بالماء قبل فوات الأوان.

جلب يوسف قطعة من الإسفنج وزجاجة وأخذ يعصر الإسفنج داخل الزجاجة حتى ملأها،

هرول يوسف وذهب لينجد أصدقاءه أولًا، وبدأ يصرخ وينادي بكل أمل وحماس،

بدأ يمسح وجه سالم وعبد الله بالماء ليفيقا، ويرويا عطشهما، وتعود لهما الحياة من جديد، وذهب يوسف إلى الأسرى بالزجاجة فسقاهما من الماء حتى رواهما، نعم، أنقذ يوسف جميع من في داخل نفق الحرية.

بدأت قوة يوسف ورفاقه تعود لهم رويدًا رويدًا، وقد بدأوا بتعبئة ما لديهم من ماء حتى الاكتفاء، وحمدوا الله على نعمته.

لكن الآن التحدي الأكبر هو شق طريق للخروج من النفق، والتواصل مع القيادة والعالم الخارجي، لأن مخزونهم من الطعام قد نفد بشكل كامل.

ذهب يوسف إلى نهاية النفق المسدود، وبدأ ينظر ويفكر في طريقة للخروج، ولكن لا يعلم أين سيخرج، وماذا ينتظره في الخارج، فقد انقطع عن العالم الخارجي من مدة لا يعلمها حتى هو نفسه، في نهاية المطاف كان يجب عليه الخروج لأن سبل الحياة داخل النفق قد انقطعت.

يوسف: سيحفر اثنان منا، ويحرس الثالث الجنود، ونتناوب على ذلك.

ذهب يوسف وسالم للبدء بمهمة الحفر وشق طريق للحرية، وبقي عبد الله يحرس الجنود، واستمرت عملية الحفر بالمناوبة بينهم مدة عشرة أيام متواصلة دون توقُّف، ليضرب يوسف آخر ضربة بيده وتبزغ

الشمس داخل النفق لترى عيناه الشمس داخل النفق بعد مائة وستة وخمسين يومًا.

غمرت السعادة قلبي يوسف وعبد الله، وبدأ يُهلّل عبد الله، وأسرع يوسف ووضع يده على فم عبد الله ليسكته،

وقال: وطّي صوتك؛ إحنا ما بنعرف شو في برا.

أمر يوسف رفاقه بالبقاء داخل النفق، وحمل سلاحه، وخرج زاحفًا ليتفقّد ماذا يوجد خارج النفق،

وإذا بها أرض محروقة؛ كل ما يوجد من بنايات وأشجار قد دُمِّرت، نعم، دُمِّرت غزة بكل ما فيها دون شفقة، ولكن الذي صدم وفاجأ يوسف أن الحرب ما زالت قائمة وآليات الاحتلال موجودة على مسافة قريبة جدًّا من فتحة النفق التي صنعها يوسف ورفاقه.

زحف يوسف ليصل إلى بيت قريب وقد هُدِم أكثر من نصفه، ولكنه ما زال قائمًا، ولكن تفاجأ بوجود جنود الاحتلال بداخله وقد تحصَّنوا فيه، وجعلوه بيتًا للراحة.

أخفض يوسف رأسه بغصة بقلبه سببها ضحكات الجنود التي كانت تتعالى من المنزل، فأمسك بندقيته وشد أجزاءها، وجعلها معمرة بالرصاص، ووجّهها نحوهم، وكاد أن يخطئ خطئًا يكلفه حياته وحياة جميع من داخل النفق، ولكن في آخر اللحظات -وكان إصبع يوسف على الزناد على بعد لحظة واحدة ليُطلق النار على الجنود-، وإذا بتحرُّك الجنود من المنزل ليخرجوا ويمروا بجانب يوسف وهو منبطح بجانب المنزل دون أن يروه بمشيئة الله وحفظه، وقد ابتعدوا عن المكان.

دخل يوسف البيت بحذر وتفقَّده، وإذا به يرى طعام الجنود ملقى على الأرض فأخذ يجمع بعضه في كيس بلاستيكي، وخرج وعاد أدراجه للنفق، ولكن وهو يملك طعامًا للأسرى ورفاقه.

دخل يوسف النفق بعد طريق صعب من الزحف المتواصل وسط تحليق المسيرات وطائرات الاستطلاع الكثيفة بالمكان، وأغلق عين النفق بكومة من القش كنوع من أنواع الحماية للنفق، لكنه يعلم أن هذه الحماية لن تدوم طويلًا، واكتشاف النفق هو مسألة وقت ليس إلا.

يوسف: طعموا الجنود منيح، وما ما تحسبوا حساب للأكل إحنا لازم نغادر النفق بأقرب وقت ممكن، وكمان لازم نفخّخه عشان نفجره بعد ما نطلع منه بسلام إن شاء الله، لأنه الجيش بكل مكان فوق الأرض.

سالم: كيف يا يوسف الجيش بكل مكان وكيف بدنا نطلع؟ وكمان بالجنود؟

يوسف: ما بعرف بس لو ما طلعنا من النفق خلال أربعة وعشرين ساعة، الجيش راح يكتشفنا، وهاد ما راح يصير أبدًا، راح نفكر بطريقة ونطلع.

حل الظلام، وكان يَجب على يوسف الخروج من عين النفق ليلًا، لتفقّد المنطقة ومعرفة ثغرة للخروج،

أخذ يزحف يوسف بجانب الآليات حتى كادت إحداهما أن تدوسه بجنازيرها لولا حفظ الله، وأخد يبتعد عن منطقة النفق ليجد سبيلًا للخروج، ولكن لاحظ يوسف أن المنطقة مخلاة بشكل كامل.

حتى وجد جثة ملقاة على جانب الطريق وقد تحلَّلت، كانت الجثة لمجاهد، عرف ذلك يوسف من جعبته وعصبته السمراء على جبينه، حيث كان مقاتلًا يتبع لسرايا القدس.

مد يوسف يده على جهاز اللاسلكي الخاص بالشهيد للحصول على دعم أو تواصل مع قيادته، أو أي شخص يمكنه مساعدته.

لكن دون جدوى، فقد كان الجهاز قد فرغت بطاريته بسبب النداءات المتكررة دون إجابته، رحمه الله.

أخذ يوسف الجهاز وأكمل طريقه إلى النفق، وعاد زاحفًا أيضًا دون أن يجد شيئًا يفيد خطته للخروج.

بعد أن دخل النفق،

قال يوسف مخاطبًا رفاقه ضاحكًا مستهزئًا، وقد عاد في الرابعة فجرًا بعد أن خرج لطريقه في الثانية عشرة ليلًا: أربع ساعات زحف دون جدوى، ما جبت غير هاد. ورفع اللاسلكي عاليًا.

جلس يوسف حزينًا وقد توضأ، وهمّ أن يصلي ركعتي قيام الليل، ووجَّه وجهه إلى القبلة، ودعا ربه بأربع كلمات لا خامسة لها،

وقال: ربي، كُن لنا عونًا ومعينا.

بعد أن انتهى من صلاته وظلَّ جالسًا جلسته على سجادة الصلاة، وكان قد وضع اللاسلكي أمام عينه دون قصد، فقد وقعت عيناه على الجهاز، فلاحظ شيئًا لافتًا،

بعد أن أمسك الجهاز وأبقى على جلسته، وبصوت هادئ،

قال: موتورولا.

سالم (بنظرة استغراب): شو بتقصد؟

يوسف: لما جبت الأكل من البيت اللي كان فيه الجنود، شفت الأجهزة اللي معهم، وشفت مكان شحنها، وكانت كلها أجهزة موتورولا، يعني زي جهاز أخونا الشهيد.

عبد الله: يعني شو راح يفيدنا ها الحكي يا يوسف؟

سالم: إوعا يا يوسف، إوعا تكون بتفكر بيلي بفكر فيه، ما راح أسيب ترمي حالك على الموت برجليك، أنا بعرفك وبعرف كيف بتفكر.

يوسف (مبتسمًا): ما في قدامنا حل تاني، لازم آخد الجهاز وأشحنه على شاحن الجنود وأرجع، وإن شاء الله ربنا راح يوفقني.

سالم: بس يا يوسف، أكيد الجنود لاحظوا أنه حدا أخد من أكلهم، وراح يكون محرصين أكتر، لا يا يوسف، هاد انتحار.

يوسف: ما تقلقوا، إن شاء الله راح أروح وأرجع بخير.

اتخذ يوسف قراره بالمخاطرة ودخول عش الدبابير في وضح النهار، ويعود لنفق الحرية، وتكون تلك هي بداية للتواصل مع القيادة ورحلة الخروج.

بعد بزوغ شمس اليوم التالي، وفي تمام الساعة السادسة والنصف تقريبًا، خرج يوسف من النفق بعد أن تصافح مع أصدقائه، واتجه نحو المنزل المراد، وانتظر خروج الجنود، ودخل البيت بحذر بعد أن انتظر لتنفيذ ذلك أربع ساعات منبطحًا تحت الشمس في انتظار تنفيذ مهمته، وبتوفيق من الله تمت مهمته، وعاد أدراجه نحو النفق من جديد، ولكن تفاجأ بوجود آلية صهيونية تسد عين النفق وتقطع طريق عودة يوسف إلى النفق،

فانتظر يوسف ابتعادها لساعات، وأيضًا كانت خلالها تلتهمه أشعة الشمس، ولكن عاد إلى النفق بسلام.

دخل يوسف النفق وسد فتحته، واحتضن أصدقاءه،

وشغّل جهاز اللاسلكي بلهفة، وبدأ إرسال مناداته وكررها مرارًا وتكرارًا، وبعد نصف ساعة من نداءات يوسف، لم ييأس، وبقى ينادي حتى أجاب أحد من الطرف الآخر على اللاسلكي.

يوسف: حدا سامعني؟ حدا سامعني؟

المتحدث: أرسل، مَن المتحدث؟

يوسف: نحن إخوانكم في كتائب القسام، وقد انقطع اتصالنا بقيادتنا، ونطلب العون منكم بعد الله.

المتحدث: عرّف عَن نفسك.

يوسف: صقر واحد، نفق الحرية.

المتحدث: جيد، استلمت، ستُربَط مع قيادتك بكتائب القسام، والتواصل معك خلال دقائق، انتظر نداءنا.

يوسف: جيد، استلمت.

كانت تلك الطريقة المتعارف عليها بين الفصائل للتنسيق فيها بينهم، ومساعدة بعضهم في ساحة النزال.

بعد دقائق قليلة، وقد صاح اللاسلكي من جديد.

المتحدث: صقر واحد، هل تسمعني؟

يوسف: أسمعك بوضوح، أرسل.

المتحدث: يُحدثك قسّام واحد، كتائب القسام.

يوسف: نحن محاصرون داخل النفق المعروف طرفك، وحفرنا مخرجًا جديدًا للنفق، ولكن تفاجأنا بوجود الجيش في كل مكان خارج النفق.

المتحدث: ما وضع الأمانة يا قسام واحد؟

يوسف: جميع من بحوزتي بخير، ولكن لا يمكننا الصمود في النفق أكثر، علينا الخروج منه بسرعة.

المتحدث: سيتم إنشاء خطة لخروجكم في أسرع وقت إن شاء الله، عليكم الصمود لبضع ساعات فقط.

عانق المجاهدون بعضهم البعض، وفرحوا فرحًا يملؤه الأمل للخروج بالأسرى سالمين.

بعد ست ساعات، صاح اللاسلكي مناديًا.

المتحدث: صقر واحد، هل تسمعني؟

يوسف: أسمعك بوضوح.

المتحدث: تم وضع خطة للخروج، بعد دراستها عليك الاستماع إليها،

سيتم ربط يدي وأعين الأسرى جيدًا والخروج بواحد منهم فقط مع أحد عناصرك باتجاه الجنوب، ولن يخرج أحد من النفق قبل عودة عنصرك ومعه التعزيزات اللازمة،

سيكون إخوانكم في انتظاركم لاستلام الأسير والعودة مع عنصرك، ليكون دليلهم بالدخول إلى النفق، لجلب الباقين منكم ومن الأسرى.

لكن على قائد المجموعة (يوسف) البقاء في النفق لإكمال المهمة، وعدم المخاطرة بالجميع.

يوسف: جيد، استلمت.

بعد شرح الخطة، واتجاه الخروج ليلًا كما أُسند ليوسف ورفاقه في خطه القيادة، كان على يوسف اختيار مجاهد وأسير للخروج من فتحة النفق في الثانية عشرة ليلًا.

يوسف: سيخرج من الأسرى أقلهم رتبة، أما منّا فسيخرج سالم للقيام بالمهمة.

أُغلقت عينيّ الأسير، وقُيِّدت يداه، وأُلصق على فمه بلاصق، وأعطى يوسف الأمر لسالم بالتحرك.

خرج سالم والأسير في الموعد المحدَّد من قِبل القيادة، وبقي يوسف وعبد الله مع الأسرى بدعواتهم لسالم بالتوفيق والسداد، وانتظارهم عودة سالم وإخوتهم من فرقة الدعم.

بعد توفيق الله ورعاية عينه التي لا تغفل ولا تنام،

عاد سالم وخمسة عناصر من فرقة الدعم لكتائب القسام، ودخلوا النفق في حلول الساعة الثانية، وتعانقوا مستبشرين.

قال أحد عناصر فرقة الدعم ليوسف: نحن تحت قيادتك يا قسام واحد. وأعطاه جهاز اللاسلكي الخاص بهم

بعد أن استراح جميع المقاتلين.

يوسف: كل واحد فيكم راح ياخد أسير ويرجع من نفس الطريق، وبعد وصولكم لبر الأمان وتسليم الأسرى وأنفسكم للقيادة، سأخرج أنا من النفق بعد تفخيخه وتفجيره، أنتم سبعة أسود وهم سبعة أسرى، سيكون قائدكم في هذه المهمة أخي سالم.

بعد أن أنهى يوسف حديثه للجميع، نظر إليه سالم بحسرة،

وقال: ستصنع لنفسك عصبة حمراء يا صاحب الربيع كما صنع قائدنا أبو حمزة تلك الشارة لنفسه،

أنت أيضًا اخترت، أنا الربيع ولنفسك النجاة.

يوسف: ما حدا راح يموت يا سالم، أنا راح ألحقكم، الأسرى لازم يوصلوا وتعطيني التمام من جهاز القيادة علشان أقدر أفجر النفق.

كان يوسف يعرف الطريق الذي سيسلكه، وكان يحكي لسالم تلك الكلمات فقط ليؤمن الأسرى وبقية المجاهدين.

(طريق الجنة)

لم يتخطَ يوسف ضحكات الصهاينة داخل ذلك البيت، ولم تنطفئ تلك النار المشتعلة بقلبه بسبب ضحكاتهم في أرض غزة.

نعم، لقد اختار يوسف عدم العودة، فهو يعلم أن مهمته في تأمين الأسرى قد تمت، ولكن كان ليوسف مبتغاه الذي لطالما اختار طريق الجهاد من أجله، كان يوسف يعيش في هذه الدنيا وقلبه معلق باللحاق بصديق عمره شقيق حبيبته، ويركب في مركبة الشهادة مقبلًا غير مدبر، ويثخن بالصهاينة، ويألمهم، ويثأر لشعبه الحر الصامد على بطشهم.

نعم، لم تكن طريق العودة للبيت مرضية ليوسف، كانت طريق الجنان بصحبة أحبابه الذين صدقوا عهدهم مع الله هي الطريق الأحب إلى قلبه.

خرج جميع مَن في النفق بقيادة سالم، وبقي يوسف أسدًا وحيدًا داخل النفق.

صاح يوسف لسالم قبل خروجه،

وقال: هذه الورقة أمانتي يا سالم، ضعها على حجر أمي، وأبلغها سلامي.

تأكد سالم من غاية يوسف، فبكى وعانقه،

وقال: أتمنى من الجنة أن تجمعنا كما فعلت أرض غزة يا يوسف.

يوسف: أعطني التمام فور وصولك للقيادة يا سالم، أنا بانتظارك، ليفتح الله طريقكم.

في تمام الساعة الخامسة فجرًا، صاح اللاسلكي أخيرًا.

القيادة: تم وصول الأسرى والمجاهدين وهم بمأمن الآن، عليك الخروج وتفجير النفق يا يوسف.

يوسف كان قد ابتسم قلبه قبل وجهه،

وقال: الحمد لله رب العالمين، هل الشباب بجانبك؟

القيادة: نعم صحيح، عليك الخروج في الحال.

يوسف: لقد منّ الله عليّ بأن أكون تحت قيادتكم حتى هذه اللحظة، ولكن قد اخترت طريقًا لطالما تمنيتها ولم أنلها،

يعزّ عليّ أن أعصي لكم أمرًا، ولكن قد طال اشتياقي للأحباب، فسامحوني،

سامحني يا سالم، وأنت كمان يا عبد الله، ربنا جمعنا بالدنيا، وإن شاء الله راح يجمعنا بدار الآخرة، لقد كنتم خير صحب في هذه الدنيا، وأبلغوا سلامي لإبراهيم ومحمد، وابقوا على عهد الشهداء.

(لا راحة لكم في أرضنا)

بعد أن أغلق يوسف جهاز اللاسلكي، وعزم عزمه،

وجمع عتاده وفخخ النفق، وأصبح تفجيره فقط ضغط يوسف على الريموت كنترول في يده،

خرج من النفق ليراقب صيده في ذلك البيت الذي استباحوه، لم يبقَ ليوسف بعد أن أخرج أصدقاءه والأسرى إلا أن يدخل ذلك المنزل ليحوّل ضحكاتهم إلى صراخ ويثأر لإخوانه الشهداء، وليفعل الله به ما يشاء، هذا ما كان يدور في ذهن يوسف، لا شيء غيره.

فعل يوسف ما سعى له، واشتبك مع أجبن وأوهن أسطورة كاذبة صنعها الإعلام الكاذب في التاريخ.

في الصباح، تساقطت البشريات الجميلة على صدور كل فلسطيني وعربي حر.

جميع الوكالات الإخبارية والمنصات الاجتماعية تلتهب بالحدث الأكبر، ونصر المجاهد والفدائي الأعظم.

كيف لمجاهد وحيد أن يفعل ما فعله يوسف بتلك الجودة ضد جيش مدجج بالسلاح!

نعم، لقد قتل يوسف أربعة عشر جنديًّا صهيونيًّا، وهاجم قطيع الضباع النجسة كأسد وحيد، وجرح منهم ما جرح قبل أن يستدرجه الجنود لباب النفق وأُصيب بأربعة طلقات غادرة منهم، وسقط قبل دخول النفق.

نظر يوسف إلى السماء بعد أن سقط وابتسم كأنه رأى منزلته في جنات عدن، وبعد أن تجمع الجنود حوله ظنًّا منهم أنهم قتلوه، ضغط يوسف على ريموت تفجير النفق بعد أن نطق الشهادة، وفاضت روحه لخالقها أسدًا مقبلًا غير مدبر.

نعم لقد استشهد يوسف، لكن ما زالت السلسلة في عنق هبة، وستسقط على عنق شهيد آخر، وستكون لتلك السلسلة قصة أخرى ليرويها شهيد آخر.

تلك أمانة الشهداء لدينا، ونحن عهدهم ما دمنا، لن تتوقف سلسلة الشهداء.

لم تنتهِ القصة إنما سقطت ورقة من صفحاتها فقط، وهي صفحة يوسف، ستستمر السلسلة بالسقوط على أعناقنا ما دامت أرضنا مغتَصَبَة من قبل الصهاينة.

نتسابق هنا لتضحية من أجل الوطن ومقدساته من كافة الأديان، وحتى تحرير كل شبر منها، وكل أسد من أبطالنا خلف القضبان.

يتساءل البعض؛ هل يستحق الوطن كل تلك التضحيات؟ هل الوطن أغلى من أبنائه؟ لن يجيبك عن تلك التساؤلات إلا حر فقد وطنه وأصبح مقيتًا.

إن تلك الدماء الطاهرة، والتي تُقدّر بعشرات الآلاف ما هي إلا فداء لدين الله، وتمسكًا بأرضنا ووطننا الطاهر، وثمنًا ندفعه لحريتنا ذات يوم قريب.

وعندما تسأل والدة يوسف أو أي والدة شهيد عن حالها بعد فقدان الولد، تجيبك بكل ثقة دون تردُّد: (فدا الأقصى، إحنا كلنا فدا الأقصى يمّا).

وحين تسأل فاقد بيته ساكن الخيام: هل يستحق هذا الوطن خروجك من بيتك للخيام؟

يجيبك بكل ثقة، لو يهدموا بيوتنا مائة مرة، فسنبنيه مائة مرة، ولن يروا في عيوننا الانهزام.

استقبلت هبة خبر استشهاد يوسف بدموع القلب، ولكن لم يرَ أحد دموع أعينها سوى ورقة وصية يوسف، نعم، تماسكت أمام الناس وقابلت يوسف يوم زفافه شهيدًا بالورود والزغاريد، ولكن حينما فتحت الوصية وقرأت كل حرف ونقطة من كتابة حبيبها يوسف، كانت تتخيل حالها دونه، وحينما عرفت قصة السلسلة، قبّلتنا بحرقة شديدة، وعلمت أنها هدية وأمانة أغلى شخصين على قلبها في هذه الدنيا، يوسف، وعمر.

وتذكرت كلمات يوسف لها حينما

قال: هذه السلسلة غالية على قلبي، وفي يوم ما ستكون غالية على قلبك أيضًا يا هبة.

نعم، صدق القول يوسف، وأصبحت السلسلة أغلى ما تملك هبة، ولم تنسَ صاحب السلسلة، وبقي يحتل قلبها،

استشهد يوسف وبقي عهد السلسلة الملتفّة على عنق هبة، والتي ستلتف على عنق شهيد آخر ذات يوم.

(النهاية)